وقف مركز مكة العالمي للهداية القرآنية
جمعية القلم للدراسات والأبحاث
مؤتمر
هدايات القرآن في بناء الإنسان

عنوان البحث:

صناعة العقل في ضوء هدايات القرآن الكريم
وأثره في ضبط المنظومة الإنسانية

اسم الباحث/ـة

أ.د/ عبد الغفار بن بلقاسم بن نعيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

يشكل العقل في القرآن الكريم محوراً مهماً في مجالات الاهتمام بوجود الإنسان وكينونته، ولا تقتصر أهميته على مجرد التفريق بين عاقل وغير عاقل، بل تتعدى ذلك إلى تمييزه وتميّزه بين جنس العاقل ذاته، فعلى العقل إذا مدار العلم والعمل، وعليه التعويل في تحصيل مسمى الإنسان الذي حظي في خطاب القرآن الكريم بمختلف معاني التكريم والتبجيل.

لقد بُنيت رسالة القرآن بمختلف أبعادها على الإنسان وفهمه وتفكيره ومنهجه في الحياة، وهذه المسائل هي الحاكمة في الأخير على مصيره المحكوم أصلا بسلامة العقل، إذ لا يمكنه التصرف دون وجود عقل فحسب، بل دون وعي هذا العقل في ذاته،

والدليل على هذا تلك الترسانة الواسعة من الآيات القرآنية التي توجّه الإنسان إلى حسن التصرف والمعاملة تحت حاكم العقل والتمييز.

إنّ المراجعة المستمرة المتأملة لخطاب القرآن الكريم ستظل **تؤكد على حقيقتين مهمتين،**

أولاهما: مركزية الإنسان في المنظومة الحياتية.

وثانيهما: مركزية عقله في المنظومة الإنسانية، وكلاهما يسري في نفس سياق تكريم الّإنسان وتمييزه على سائر المخلوقات، وهي لفتة تفضيلية تتطلب من الإنسان تقديرها حق قدرها، وذلك بالوقوف عند الأوامر والنواهي والحلال والحرام ومختلف الأحكام الشرعية.

قد يكون من المهم جداً النظر إلى بناء الإنسان وصناعة عقله ضمن دائرة واسعة النطاق من التوجيهات القرآنية التي تستمر في الحياة، مثلما يستمر خطاب القرآن في الحياة، وبالضرورة فحدودها العامة هي أحكام القرآن وتشريعاته الثابتة، لكن فضائلها وأخلاقياتها قابلة للتثمين حسب خصائص كل

جيل وكل بيئة، وفي عصر العولمة والمعلوماتية هذا يقدّم العقل الحديث العديد من الإضافات لم تكن تعرفها أجيال سابقة، ولا ينقصها إلى أن تنضبط تلك المعرفة بالضوابط القرآنية، التي تُحافظ على الدين والنفس والعقل.

سنحاول في هذه المداخلة معالجة بعض تلك المسائل المتعلقة بالعقل، وبناء الإنسان بما يتماشى مع سياق الهدايات وفق ثلاثة مباحث:

يتعلق الأول: بالمسارات العملية الدالة على تميّز الإنسان.

والثاني: حول المنظومة الإنسانية.

والثالث: حول المنظومة العقلية.

مع خاتمة وتوصيات، وذلك على التفصيل التالي:

المبحث الأول: المسارات العملية الدالة على تميّز الإنسان ضمن المنظومة الإسلامية:

يُمكننا أن نعالج هذه المسارات من خلال دراسة مسألة المركزية[١] الإنسانية في المنظومة الحياتية، ونعتقد أنها أهم ما تقوم عليه تلك المسالك والمسارات العملية التي اهتم لها القرآن الكريم والتي تبيّنُ وبدقة مكانة الإنسان ضمن المنظومة الإسلامية الخَلقية والخُلقية المختلفة والمتنوعة والواسعة جداً، والتي لا يحدّها زمان ولا مكان[٢]، وقد جاء خطابها موجّها ومرتبطاً رأساً بالإنسان، وسنحدد ذلك في المسارات المركزية التالية:

أولاً: مركزية الإنسان في مسألة سجود الملائكة:

مسألة السجود لها وجهين، أولهما نبوي باعتبارها خاصة بسيدنا آدم عليه السلام، والثاني بشري باعتبار ارتباطها المباشر ببشرية سيدنا آدم أبيضا وهو الخليفة في الأرض، وقد جاء التدليل عليها في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، **فقوله تعَالَى:** ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الحجر٢٨/ ٢٩ .

هذه الآية تعتبر المنطلق الأول لأصل الوجود الإنساني، وفيها نسب الله تعالى خلق آدم عليه السلام لذاته وحجه عزّ في علاه وما ذلك إلا إشارة إلى مكانته ورفعته عند الله تعالى: جاء في تفسير ابن كثير في معنى الآية: خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ آدَمَةِ الْأَرْضِ، مِنْ طِينٍ لَازِبٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ، بِيَدَيْهِ تَكْرِمَةً لَهُ وَتَعْظِيمًا لِأَمْرِهِ وَتَشْرِيفًا لَهُ عَلَى سَائِرِ خَلْقِهِ"[٣]

---

(١) مصطلح المركزية هنا لا نقصد به التوجه الفلسفي او الحداثي بل نقصد به المكانة والأهمية والدور الذي يؤدبه الإنسان وينبني عليه مصيره

(٢) نقصد بها مخلوقات الله تعالى في الكون والحياة مما يرى وما لا يرى

(٣) تفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١، ج١، ص ٤٩٦ /

إضافة إلى ما يفيده الخطاب من وجه السرعة والإنابة في تنفيذ أوامر الله تعالى في السجود من خلال لفظ "فقعوا" [١]

تظهر تلك المركزية إذا من جوانب كثيرة ذكر المفسرون منها ما ذكروا واختلفوا اختلاف تنوع ودلالات، فقد جاء في تفسير روح المعاني أن الآية فيها: "إشارة إلى عظم شأن آدم عليه السلام حيث أخبر سبحانه بخلقه قبل أن يخلقه، وسماه بشرا لأنه جل شأنه باشر خلقه بيديه... أضاف سبحانه الروح إلى نفسه تشريفا لها وتعظيما لقدرها لما أنها سر خفي من أسراره جل وعلا"[٢]

فسجود الملائكة إذا ارتبط رأساً بمسمى البشر أو الإنسان وبأمر إلهي وكل هذا تأكيد على أهميته ومركزيته في شؤون الكون والحياة.

ثانياً: مركزية الإنسان في قضية الخلافة في الأرض:

قد يكون من الصعب جداً فهم مآلات الاستخلاف المنوطة بالإنسان، وهي على قدر ما تعكس قيمة الإنسان ومكانته فهي أيضا تشمل ما يجب أن يكون عليه وهو خليفة الله تعالى في الأرض، وقد جعل القرآن الكريم مسألة الاستخلاف هذه على تفصيلات مهمة، فأوردها على صيغتين مفردة ومجتمعة، وأورد المفرد منها أيضا على صيغة عامة وخاصة، فأما العام منها ففي قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ البقرة: ٣٠، "والصواب في معنى قوله خليفة كما قال الطبري أَيْ مُسْتَخْلِفٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً وَمُصَيِّرٌ فِيهَا خَلَفًا"[٣]. وأما الخاص منها ففي قوله تعالى ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ

(١) أقرّ العلماء هنا أن السجود لم يكن سجود عبادة

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، شهاب الدين محمود، تحقيق، علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ ج٧، ص ٢٩٨

(٣) تفسير الطبري، ج١، ص ٤٧٥

ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ ص: ٢٦.

وهو خطاب موجه للنبي داود والأصل فيه الاقتداء، لأن الآية تشمل توجيهاً ربانياً لما يجب أن يكون عليه المستخلف في الأرض (الإنسان/ النبي)،

قال الطبري:" وَلَا تُؤْثِرْ هَوَاكَ فِي قَضَائِكَ بَيْنَهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِيهِ، فَتَجُورُ عَنِ الْحَقِّ {فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} [ص: ٢٦] يَقُولُ: فَيَمِيلَ بِكَ اتِّبَاعُكَ هَوَاكَ فِي قَضَائِكَ عَلَى الْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ عَنْ طَرِيقِ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَهُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ فِيهِ، فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ بِضَلَالِكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ"(١)

كما جاء التنبيه إلى هذه الأهمية في قوله تعالى بصيغة الجمع في مواضع كثيرة وباشتقاقات مختلفة تدلّ جميعها على أن الإنسان مُكلّف ليس باستكمال المهمة بل بحسن أدائها أيضاً، منها قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٦٥، جاء في تفسير ابن كثير قوله:" أي جعلكم تعمرونها جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ، وَقَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَخَلَفًا بعد سلف"(٢)

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ يونس: ١٤. وقوله تعالى﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ خَلَٰٓئِفَ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ يونس: ٧٣

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۗ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٣٩﴾﴾ فاطر: ٣٩.

---

(١) المصدر السابق، ج٢٠، ص ٧٧

(٢) تفسير القرآن العظيم، بن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تحقيق، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ط١، ١٤١٩هـ/ ج٣، ص ٣٤٥.

وقوله تعالى ﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ الأعراف: ٧٤.وقوله تعالى ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ النمل: ٦٢. وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ الزخرف: ٦٠

وقوله تعالى ﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ الأعراف: ١٢٩.

فجميع هذه الصيغ موجه خطابها إلى الإنسان لا إلى غيره، وورود لفظ الاستخلاف بصيغة الجمع يدلُّ أيضا على أن المهمة جماعية وليست فردية وأن الجميع منوط بمسؤولية الاستخلاف كل في مجاله وتخصُّصه، وأن الهدف منها هو الاستمرار في عمارة الأرض وإصلاحها ولا يكون ذلك إلا بالعقل.

يشير اهتمام القرآن الكريم بتنويع صيغ هذا الخطاب إلى الأهمية العملية والعقدية لمسالة الخلافة، فالإنسان باعتبارها مهمة شاقة في آن واحد، ذلك أنّ الخلفية تقتضي أن يكون الهم الأكبر للخليفة ترقّيه نحو مستخلفه، واقترابه كمنه ليحقق معنى الاستخلاف على الوجه الأفضل، ولذلك فإن الإنسان الخليفة جوهر خلافته أن يحصر همّه وجهده في الاقتراب من الله مستخلِفه بالعمل الدائب والجهد المستديم لترقية ذاته وتنميتها.

ثالثاً: مركزية الإنسان في مهمته التعبدية:

بموجب قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ النور ٤١. وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ البقرة: ٢١ يكون الإنسان من مجموع ما يسبح لله تعالى عبادة، وصيغة

الأمر بالعبادة هنا لم توجّه إلا للإنسان من سائر من يسبح لله تعالى من خلقه ومخلوقاته، وهو خطاب أهمية يعكس مركزية عبادة الإنسان وأهميتها بالنسبة له، إذ لا تستقيم تلك العبادة إلا بالعقل الذي حظي به، وعليه فوجود العبادة لله تعالى في الأرض تتحقق بالإنسان لكنها لا تعود بالنفع على المعبود بل على العابد نفسه، وبها صلاح دينه ودنياه.

العبادة التي كلّف بها الإنسان في الواقع تتجاوز معنى المهمة إلى معنى الحياة، ليصبح مسماها الحياة التعبدية، ووصولها إلى هذا المسمّى تحتاج إلى الإنسان وعقله معا فهو لا يجدها جاهزة، وإنما يعمل لها عملا مستقيما وشاقا، وعموما فالربط بين الإنسان وعقله مُستصحب في كل مجالات عمله وتواجده، لكنه هنا يشكّلُ واجهة مناسبة لصلاح العبادة.

إنّ في آية سورة البقرة السالفة تلميحاً مهماً جداً فهي تندرج ضمن طائفة واسعة من الآيات التي تتضمن نداءات الله تعالى لعباده وخلقه، والملفت في الأمر أنّ الله تعالى:"كلما نادى الناس في القرآن بالاستجابة لأمره التعبدي، ناداهم من حيث هو خالقهم، وهو يسألهم أداء حق الخالقية، هذه الصفة العظيمة لذاته تعالى"(١)

وفي النهاية لا وجود لغاية أخرى في حياة الإنسان غير العبادة، فالحياة لا يمكن أن تكون بدون هدف خادم لصلاح الإنسان، ويفهم هذا من خلال الآيتين التاليتين، أولاهما امتثالاً قوله تعالى: "﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ الذاريات: ٥٦، وثانيهما قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ المؤمنون: ١١٥.

ومن الطبيعي أن لا يتم حصر مفهوم العبادة في ما تم النص عليه فقط، فالعلماء يجتهدون باستمرار في التنصيص على ما يرونه لله عبادة قلبية أو

(١) بلاغ الرسالة القرآنية، الأنصاري فريد الأنصاري، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ٦٦

سلوكية أو أخلاقية أو غيرها فالعبادة واسعة المعنى بحيث يشمل كل أعمال الإنسان النافعة، ويحيط بها كلها.

رابعاً: مركزية الإنسان في مهمته البنائية ـ عمارة الأرض:

مسألة عمارة الأرض هي النتيجة الحتمية لممارسة الإنسان خلافته فيها، فهما مسألتين مترابطتين رأساً، ومن الجيد التنبيه هنا إلى أنّ عدم ضبط تصور هذا الارتباط سيكون سبباً في اضطراب مفهوم عبادة الله تعالى، والمهمة التي يجب أن يضطلع بها الإنسان هي مهمة الخلافة على أساس من عمارة الأرض بمنهج العبودية لله تعالى، وقد وصف هذا الارتباط في بعض الأبحاث "بعمران الاستخلاف وهو الذي يشمل كل النشاط البشري، ويستوعب كل أبعاده الكونية"(١)

لقد جاءت الإشارة إلى هذه المسائل في قوله تعالى:﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ هود: ٦١،

قال ابن كثير في تفسيره:"هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ أَيِ ابتدأ خلقكم منها خَلَقَ مِنْهَا أَبَاكُمْ آدَمَ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيها أَيْ جعلكم عمارا تعمرونها وتستغلونها" (٢)

لقد نبّه الخطاب القرآني أنّ مركزية الإنسان في مهمة العمارة مرتبط نجاحها بالامتناع عن العبث والفساد والإفساد فيها، ومن خلال الآيات الدالة على ذلك يظهر العقل مرة أخرى ليثبت مهمته ودوره .

وفي ما يلي بعض ما يدل على ذلك: **قَالَ تَعَالَى:**﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ البقرة: ١١.

قَالَ تَعَالَى:﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ الأعراف: ٥٦. **قَالَ تَعَالَى:**﴿ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

(١) بلاغ الرسالة القرآنية، المرجع السابق، ص ١٧

(٢) تفسير ابن كثير ، ج٤، ص ٢٨٦

الأعراف: ٨٥ ، ولم يكن هذا النهي ليخدم الإنسان وحده وهو الذي يعيش في هذه الأرض، بل لأن الله تعالى أيضا لا يحب الفساد ولا الإفساد،

قَالَ تَعَالَى:﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ البقرة: ٢٠٥، وهذا من تمام العبادة لله تعالى والامتثال لأوامره. ولن تتم هذه الأوامر والنواهي إلا بالعقل.

لقد شكّلت هذه المسارات الأربعة صورة مناسبة للإنسان المنشود، وهي مجموع ما هيّأه الله تعالى له ليكون متميّزا، وهي في الواقع مسارات تكريمية لها ما أهميتها في مجالات أخرى ذكرها القرآن الكريم، كخلق الإنسان في أحسن صورة، تسخير الكون والطبيعة له، وتكليفه بالأمانة، وتوفير ما يحتاجه من النعم في الأرض، وغيرها.

تؤدي هذه المسارات دوراً عملياً واضحاً في صناعة الإنسان العاقل، وضمن المنظومة الإسلامية الواسعة مجالاتها، تظهر الأعمال الإنسانية بلا قيمة إذا انعدمت أهدافها ومآلاتها، وفي كل هذا تبقى للعقل أدواره الموجّهة وليست المتسلّطة، بمعنى تكون له سلطة التوجيه لا التسلّط في التوجيه.

قد تتفق الدراسات العربية الإسلامية مع الغربية في مسألة محورية الإنسان في مجالات متعددة، لكن في المساحة العربية الإسلامية أكثر ضمانا لنتائج موضوعية فقط لانضباطها بخطاب الشرع، وعليه لا يمكن تنتج مركزية الإنسان من العدم كما لم ينتج هو أيضا من العدم، كما لا يمكن أن تدرس في إطارها المجرد باعتبار الإنسان هو الكيان الأكثر أهمية في الحياة، بل في إطارها الروحي أن الإنسان عليه مدار خطاب الشرع، وعليه مدار العمل وهو كائن له مهام منوطة به شرعاً فيها تكاليف وأحكام شرعية.

قد لا يمكننا حصر المقولات التي جاءت في سياق التأكيد على مثل هذا حتى في الدراسات الغربية ومنها أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم قد أسس أمة تقوم على عقيدة بسيطة لا تتضمن إلَّا ما يقره الشرع والعقل من إيمان بالإله الواحد الذي يكافئ على الفضيلة، ويعاقب على الرذيلة.

المبحث الثاني: المنظومة الإنسانية
في إطار هدايات القرآن الكريم:

لا يختلف اثنان أن القرآن الكريم كتاب متكامل، وخطابه كذلك، لذلك فكل منظومة تناولها فهي متكاملة أيضاً، ومن بينها المنظومة الإنسانية، التي تأسّست بكامل أخلاقها وفضائلها مع البعثة النبوية وتزامن اكتمال مظاهرها بالسلوك النبوي الشريف، فقد كانت شاملة لمختلف القيم التي يحتاجها الإنسان في حياته، ولم يكن مطلوباً من الإنسان في سبيل تحصيل هذه القيم أكثر من الاقتداء، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ الأحزاب: ٢١ والنبي صلى الله عليه وسلم أسوة للبشرية في كل شيء.

قد يكون من المناسب أن نعالج هذا المبحث انطلاقاً من مسلك الهداية، وفي هذه المسألة سيكون الربط بين مقام النبوة والإنسان دقيقا جدا، فالله تعالى **قَالَ** ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ القصص: ٥٦، .

ورغم نزول الآية في سبب خاص بعم النبي صلى الله عليه وسلم،

فالعبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها، ويلزمنا هنا الربط بدقة بين منطوق النص الذي يفيد بأن الهداية من الله وحده، وبين تمييز الإنسان بعقله لا بهواه، فلا تناقض بين الأمرين لأن الإنسان حين تشتغل آلته العقلية والفكرية لمعرفة الحقيقة، تكون "هداية التوفيق والتسديد والتثبيت من الله وحده" وسندا لهذه العملية. وهذا تأكيد مُلزم للدور النبيل الذي يؤديه العقل لدى الإنسان، وهو المسؤول عن نجاة ذاته. لا يتحدث القرآن الكريم عن الإنسان إلا في إطار اعتباره قائداً في تسيير مختلف مجالات شؤون الحياة، ولا شيء تقوم له قائمة دونه، فالإنسان المنشود لا يأتي عبثاً، لكنه يتكوّن

بتوجيهات الوحيين معاً، وعليه مدار العمل. وبالعودة إلى تأصيلات خلافته في الأرض فهو منتظر في مهام مدنية ومجتمعية واقتصادية وحتى أمنية وإدارية، وفي الواقع يتناسب هذا تماما مع حرص القائمين على القطاعات المجتمعية المختلفة على هندسة المجتمع كل حسب تخصّصه، فالإدارة تسعى لصناعة رجل إداري، وكذلك الجهات الأمنية، والعسكرية، والاقتصادية، وغيرها جميعا من المهن اليدوية خارج من رحم الدين الإسلامي والتوجيه له قائم في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

تسعى التوجيهات القرآنية والنبوية في هذه الحال إلى تحصيل قيمة الرقي في المجتمع، وتدعيم الاعتقاد بتكامل المنظومة الإنسانية من خلال حرص كل جهة على صناعة الإنسان المختص،

وهذا يجعلنا نفهم بقوة أنّ التمسك بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة كفيل وحده بأي تطور فكري تنشده البشرية.

في ذات الصدد سيكون مهما النظر إلى مجالات الحياة المختلفة التي يؤدي فيها الإنسان دورا مهما كإطار متكامل، وعليه فالمنظومة الإنسانية جزء لا يتجزأ من "المنظومة الخلقية الإسلامية، التي تظل عند المسلمين، هي المثل الأعلى والضابط للقيم والسلوك الاجتماعي، وتظل أصول الشريعة ونصوصها، هي النظام التشريعي للمجتمع في علاقاته كلها، الأسرية والاجتماعية"(١)

في المقابل لا يتساهل القرآن الكريم في التشديد على تصرفات العبث واللعب واللهو التي قد تلتصق بالإنسان في حياته اليومية، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ المؤمنون: ١١٥ ، و قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ

(١) حقوق الإنسان في الإسلام ـ التركي عبد الله بن عبد المحسن، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف والإرشاد الديني، السعودية، ١٤١٩هـ ص ٩٢

وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ المائدة: ٥٧ ، وقَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾ الأعراف: ٥١، وتلك جميعها تنبيهات نبيهة إلى أهمية وجود الإنسان في الحياة، ومكانة الأدوار الموكلة له، فقد وافق على تحمُّل الأمانة من قبل وعليه أن يرعى ما تحمّله.

يأتي هذا التشديد القرآني لأنّ بعضا من طبائع الإنسان قد تصنع منه ظالماً أو متعدياً أو طاغياً، ولأننا نؤمن جميعاً أن الله تعالى لا يوفق إلا إلى خير، فإن كان إنسانا صالحا فبهداية الله وحده، وإن كان عكس ذلك فلخلل ما يعتري ذاته، والإنسان إذ يعيش بين كونه صالحا أو طالحا فرق مهم يجب الاعتناء به، فالله تعالى قال في آيتين متتابعتين في نفس السورة ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ التين: ٤- ٥ .

ذلك أن الجمع بين النقيضين في الإنسان ينصرف إلى وصف واحد وهو وصف الاستعداد الذي يجعله أهلا للترقي إلى أحسن تقويم، وأهلا للتدهور إلى أسفل السافلين" (١)

بين الأمرين إذاً حاجز فاصل لكن التدقيق يكشف لنا: "أن الإسلام بنى سياسته تجاه الإنسان على الأصول الخيّرة في الفطرة، وأصول الهداية السماوية التي تستجيب لها"(٢) مصداقاً لقوله تعالى قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٠ ﴾ الروم: ٣٠. من المفيد في هذا المجال أن نجد الدراسات الاجتماعية حين تؤصلُ لقضية التنشئة تجعلها في إطارها الموضوعي،

(١) الإنسان في القرآن، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر العربية، ٢٠١٢، ص ١٥

(٢) الإنسان في القرآن، برهان رزيق، دار حوران، سوريا، ط١، ٢٠١١، ص ١٤٥

ويعرفونها بأنها عملية:" يقصد منها تحقيق تكامل المجتمع، وتهدف إلى إغراء الأفراد لتقبّل السلوك المفروض عليهم، وتحمّل مسؤوليات الأدوار المتوقعة منهم في المجتمع، كما تقوم التنشئة بنقل الثقافة من جيل إلى آخر، إذ تعتمد على ما يتعلّمه الطفل والشخص البالغ من معتقدات وقيم ومهارات إلى جانب اكتساب المظاهر العقلية للثقافة، ويتعلّم الطفل من خلالها كيف يكون عضوا في الجماعة ويدرك ما يعتبره صواباً وضرورياً للبقاء فيها، كما يتقبل المدركات العقلية السائدة"(١)

وهذا دليل مدني اجتماعي على أنّ تحصيل الإنسان وزيادة على كونه غير ناتج من فراغ، فهو عملية غير سهلة أيضا، وأنّ مفاهيمه تفوق التصور السطحي لوجود كائن بشري جديد في الحياة.

رغم توافق هذه التعاريف مع المفاهيم الشرعية، لكن تفوق هذه الأخيرة كان لتميّزها وعمق نظرتها إلى قضية التنشئة، وتجعل للجانب الروحي مكانة مهمة، ولا تفصل بين مستويات الرعاية التي تعتبرها ضرورية في كل المراحل، وبمجرد وجود الإنسان في الحياة تبدأ عملية الاهتمام بالمنظومة الفكرية والسلوكية لأن قضية التنشئة لها موجّه عظيم وهي مرتبطة به رأسا هو القرآن الكريم. الذي "يعدُّ منهجاً بنائياً وفعالاً في تعليم مهارات التفكير الحديثة"(٢)

من هذا المنطلق لا يمكن في حياتنا الإسلامية اعتبار المنظومة الإنسانية منظومة فارغة، وهو – الإنسان – حين يكتسب باقي المنظومات الفكرية والسلوكية والقيمية والأخلاقية وغيرها فليس ذلك لشجاعة أو ذكاء منه، بل

(١) الهندسة الاجتماعية، صناعة الإنسان والمواطن، علي عباس مراد، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٧، ص ٦٠،

(٢) كلية العقل حفظها وتنميتها، مريم زايد هزاع، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، ٢٠٢٠ ص ١٧٨

؛لأن لديه موجّه وحارس أمين وهو القرآن الكريم، ولا يحتاج من الإنسان أكثر من السمع والطاعة والتفكير.

يفترض في هذه الحال أن يبحث الإنسان عن إجابة لذلك السؤال الشرعي: كيف يصنع الإسلام إنسانا مسلما أو صالحا ؟، والإجابة على هذا السؤال لا تبدو بتلك السهولة المنتظرة، والأصل في ذلك هو حديث النبي عليه الصلاة والسلام الذي رواه "أَبَو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴿٣٠﴾ ﴾ الروم: ٣٠[١]

ومع ذلك وفي المقابل فالصلاح مسألة جوهرية جداً لن تستقيم الحياة بدونه، فالإنسان الصالح هو الدعوة العملية لرسالة الإسلام، وحين النظر إلى صورة المسلم الحالية مقارنة بالصورة التي كان عليها يوم كان الإسلام حيا في نفوس أتباعه، سندرك تلك الأهمية القصوى لصناعة الإنسان الذي يعيد تلك الصورة النقية التي اندثرت تحت ركام الجهل والتعصب وسوء الفهم"[٢]

هناك سؤال منطقي قد يتبادر إلى أذهان البعض يتعلّق بقدرة القرآن الكريم على توجيه نفس الضوابط البنائية للمجتمعات الإنسانية منذ نزوله إلى انتهاء الدنيا رغم اختلاف البيئات المجتمعية على مرّ العصور، وتباين الثقافات،

(١) صحيح البخاري، البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، كتاب باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢، الحديث رقم ١٣٠٩، ج٢، ص ٩٥

(٢) كيف يصنع الإسلام الإنسان الصالح، فاطمة عبد المقصود، مقالة منشورة على موقع https://tipyan.com/how-does-islam-create-agood- perso تاريخ الدخول إلى الموقع ٠١ فيفري ٢٠٢٤ على الساعة ١١:٠٠

والعادات والتقاليد والأعراف وحتى نمط التفكير، وفي الواقع قد أمرنا الله تعالى بها تحت مسمى التدبر في مواضع كثيرة، هذا يجعل القراءة المطلوبة لنصوص القرآن الكريم هي القراءة العميقة المتبصّرة، إذ لا ولن تشهد البشرية خطاباً مماثلاً في هذه القوة من الإقناع والمسايرة للفرد والمجتمع على مرّ العصور والأجيال. ويدّلنا هذا الصمود على أنّ القواعد البنائية للإنسان في إطارها العام موحّدة ولا تتغير حسب منطق القرآن الكريم، وهو ما تكشفه لنا عملية التدبر المأمورون بها في القرآن الكريم، **قَالَ تَعَالَى:** ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ ص: ٢٩.

وعليه فإن كانت هذه المحددات المشتركة مرتبطة ببناء شخصية الإنسان فهي مرتبطة أيضا ببناء تفكيره، وسيكون المنهج المنظومي هو أحد المناهج التي يكشفها لنا هذا التدبر في تعامل القرآن الكريم مع الفكر الإنساني،

بمعنى أن القرآن الكريم يبني فكر الإنسان على وفق منهج منظومي مترابط لا يهتم بأشياء دون أخرى:" فهو ينظر في الوقائع وعلاقاتها الشبكية بين الأجزاء ومع الكل، والقرآن الكريم ينهج هذا النهج في الخطاب وفي التربية العقلية والنفسية للإنسان"(١)

إنّ المقارنة منعدمة أصلاً بين التصور المنهجي الذي يطرحه القرآن الكريم تجاه الإنسان وبناءه، وبين الدراسات والأبحاث المعادية والناقدة له، والتي تجتهد سلباً في معارضة خطابه ونقده، وهي تركز على جانب دون آخر،

فالإنسان عندها جسد مادي لا روح له، لأنها دراسات تنطلق من الوهم لا أساس ديني أو شريعة صحيحة تستند إليها، ونتاجها مؤلمة، على خلاف القرآن الكريم الذي يربط جميع الأجيال الإنسانية بالمجتمع الإسلامي الأول،

(١) مهمة القرآن الكريم في تنمية التفكير المنظومي لدى الإنسان، مصطفى محمود حوامده، مجلة جامعة دمشق، المجلد ١٩، العدد٢، ٢٠٠٣ ص ٦٠٠

"فقد صنع إنسان الرسالة، وبنى قامات شيّدت حضارة إسلامية مبهرة، ويعمل على تشكيل العقل والنفس والسلوك" (١)

على ضوء هذا فإنّ الإجابة عن أسباب غياب الفضائل في المجتمعات العربية والإسلامية، هو غياب البحث عن أسباب المجد السالفة، ونعتقد أن الانفصال عن الحضارة الإسلامية هو انفصال تام عن منهجية بناء الإنسان، ذلك أن المجال الكامل للإسلام هو مجال الثقافة ومجال الحضارة، وقد بناهما الإسلام ونمّاهما على مدار الأجيال، والوصول إلى ذلك لا يتم إلا بدراسة الإسلام وحضارته.

(١) فقه بناء السلوك في القرآن، كفاح أبو هنود، عصير الكتب للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠ن ص ١٩

المبحث الثالث: المنظومة العقلية

في إطار هدايات القرآن الكريم:

الحديث عن المنظومة العقلية في القرآن الكريم هو الركيزة الأساسية لصناعة الإنسان، وتحديد منظومته السالفة، وهو أيضا حديث متعدد الجوانب ليس فقط لتعدد أساليب وألفاظ توظيفه في خطاب القرآن الكريم،

بل للدلالات العظيمة التي يشملها ذلك التنويع، ولأن المداخلة لن تعمد إلى تعداد مواضع توظيف مصطلح العقل بصيغه المختلفة فالدراسة ليست إحصائية، فستركز على طرح موضوعي يُقدّمُ المنظومة العقلية أصلاً رصيناً في صناعة الإنسان المنشود، قد يساعدنا اعتبار الهدايات القرآنية المنظومة الأصل، وتوابعها أو فروعها متعددة وكثيرة كالعقل والفكر والإنسان وهي منظومات فرعية وغيرها كثير، ذلك أن كل ما في هذه الدنيا مرتبطا بالإنسان فغرضه هدايته وتوجيهه، فالعقل والفكر والكون والحياة والطبيعة كلها في خدمته لغرض الهداية والإرشاد.

قد يكون من المناسب في سياق البحث عن تلك العلاقة بين منظومة الهدايات والمنظومة العقلية عند الإنسان، النظر في الآيات المرتبطة بسيدنا إبراهيم والتي تشير بدقة إلى اجتهاده عليه الصلاة والسلام في تشغيل فكره وعقله لإثبات وجود الله تعالى، ومنها قوله تعَالَى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَٰفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾الأنعام: ٧٤ ٧٨.

مجمل الدراسات الإسلامية لم تقف على وجود أي تناقض بين العقل والنقل، وحتى بعض الدراسات الغربية الموضوعية التي لا تؤمن بالوحي أو الشرع وتجعل الكون في دراساتها أصلا تُفصح عن تلك العظمة الكونية التي تفوق تصورات العقل.

والمعرفة الإسلامية ترتكز على ثلاثة مبادئ وهي: أن لا تناقض بين الحقائق الواقعية وما يأتي به الوحي، وأنه لا تعارض أو خلاف أو تفاوت مطلق بين العقل والوحي، وأن باب البحث في طبيعة الخلق أو في أي جزئية منه لا يمكن أن يغلق، وذلك لأن سنن الله في خلقه غير محدودة. لكن فهم هذه الثلاثية يحتاج إلى عقل مميز بحسن التفكير، ومتميز بحسن الاستنتاج.

وعليه فتلك المصادمة المزعومة بين العقل والنقل هي مصادمة متوهمة وصادمة في آن واحد، لكنها غير صامدة أمام حقائق الدين والشرع، الذي يحرص على صياغة شرائعه وأحكامه في القرآن الكريم من خلال دعواته المستمرة للإنسان أن يزن كل الأمور بميزان العقل.

من جهة أخرى فإنّ الله تعالى لا يخاطب الإنسان إلا من خلال العقل والحواس، لذلك يذكرها أحيانا مجتمعة في سياق واحد، **قَالَ تَعَالَىٰ**:﴿ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦ ﴾ الحج: ٤٦

وقال أيضاً:﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩ ﴾ الأعراف: ١٧٩.

وهذا خطاب توجيهي يسهم بشكل أو بآخر في بناء الإنسان وتشكيل عقله، وفيه أيضا دعوة إلى البحث العلمي التاريخي في الآثار، لتبيّن ما تحمله من

دلالات تدل على الأمم التي خلفتها، وما تتضمنه من عظات للأجيال المتلاحقة.

إنّ العملية التربوية الإسلامية تراعي كل المستويات العقلية والنفسية ومراحل نمو الإنسان، وخصائص كل مرحلة جسميًّا وعقليًّا وانفعاليًّا واجتماعياً، والقرآن الكريم ينتقل في بناء الإنسان وتشكيل عقله من التهيئة النفسية للمهام الموكلة له إلى الهيبة العقلية التي تصنع قيمته ومكانته المجتمعية، وقوة عقيدته، وهي بالضبط ما وصل إليه مجتمع الصحابة عليهم الرضوان في تقديم الأولوية لمبدأ الاحتياط، والحذر حتى في ما يُظن حلاله مخافة الوقوع في الحرام، وهي مهمة معقدة وصعبة نظرا للمعيقات المنتظرة والمحتملة والموجودة أصلاً في طريق الهدايات التي نتحدث عنها هنا. إذا كان من المهم جداً عدم النظر إلى موضوع بناء الإنسان وصناعة العقل الإنساني في القرآن الكريم في إطاره نظام الهدايات في إطار لا يتعدى حدود العقيدة أو السلوك الأخلاقي، وذلك مطلب شريف وهدف نبيل، لكن يجب النظر إليه في إطاره المجتمعي والمدني العام أيضا، لأن القرآن الكريم لا يقف ضد معينات مقام الإنسان من طبائع مجتمعية مختلفة، كالنُبل المجتمعي، والكمال الإنساني، وتطوير الذات، فإنّ الأهم أن ندرك أن هذه المسائل ذاتها لن يصل إليها العقل دون توجيه روحي أو دين سماوي ورعاية إلهية، وهي الرعاية المستمرة في البشر بطريق النبوات ودعوات الأنبياء. وعليها فالإنسان مُطالب بتفعيل "قدراته العقلية لاستخلاص حكم التشريع وأسراره، واستخلاص الطاقات المادية في الكون والاستفادة منها في بناء الحضارة"(١)

إنّ في عدم معارضة العقل للنقل والشرع دلائل كبرى على القدرات التي

(١) مصطلح العقل في القرآن الكريم ووسائل الحفاظ عليه: دراسة قرآنية مقاصدية، باي زكوب عبد العالي، ياسر طرشاني، مجلة التراث، المجلد ٥، العدد٢، ٢٠٢٠ ص ٩٣ https://spaj.ukm.my/jalturath

أعطاها الله تعالى لعقول الناس، وهم مخاطبون بتشغيلها وتوظيفها على أكمل الصور، خاصة وأنّ الشرع يدعّم كل ما يُعين هذا العقل في التدبر والاكتشاف، ويجعل المسؤولية في ذلك جماعية، يكون على وفقها " المجتمع بحاجة إلى ثورة جديدة في التفكير والتغيير يتم من خلالها إعادة بناء العقل البشري بما يمكّنه من استغلال جميع قدراته الكامنة التي لم تُستغل بعد، بحيث يستطيع من خلالها تكوين عقول مفكرة ومبدعة وقادرة على مواجهة التحديات"[١] .

ومن التحديات ما تعلّق بخدمة الدين والفضائل والسلوكيات. وهي في الأصل تحديات مستمرة ما استمرت العقبات كما سبق وأن ذكرنا.

من المفيد الإشارة أنّ منهيات القرآن الكريم في إطار الحرمة مرتبطة هي الأخرى بنظام الهدايات وحفظ العقل معاً، فيلزم من شرب الخمر مثلاً ذهاب العقل ومعه ضياع العبادات وفساد السلوك، ويأخذ حكم الخمر كل مُسكر.

ولذلك فالقرآن الكريم لا يسعى من خلال هداياته إلا إلى الصلاح والإصلاح، وهو بالذات ما تركز عليه الدراسات المقاصدية التي تعتبر المقصد العام للتشريع مرتبطا: "بحفظ نظام الأمة، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه وهو نوع الإنسان. ويشمل صلاحه وصلاحَ عقله وصلاحَ عمله وصلاحَ ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه"[٢]، والإصلاح مرتبط رأساً بالعقل وسلامة تفكيره واستدلاله، بل هي مهمة الأنبياء، فقد جاء في القرآن الكريم على لسان النبي شعيب: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن

(١) المفاهيم الحاكمة لبناء العقل البشري وكيفية استخدامها لإعادة بناءه، عبد المنعم محي الدين عبد المنعم، حنان جمال عبد الحليم، مجلة كلية التربية، جامعة طنطا، المجلد ٨٠ العدد٤، ٢٠٢٠، ص ٧٠

(٢) مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور محمد الطاهر، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤، ج٢، ص ١٩٤

رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِى إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ هود: ٨٨.

لم يرد في نص شرعي ما يدلُّ على أن العقل هو المسؤول عن الهداية، وقد **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ القصص: ٥٦، لكنه بالضرورة مسار مهم جداً في سبيل تحقيقها، وزيادة على ذلك فالمهمة شاقة وصعبة ومعقدة، وفي تاريخنا الإسلامي ما يدلُّ على ذلك، في قصة الوليد بن المغيرة الذي أدرك الحقيقة بعقله لكنه زاغ عنها وسيظل ما يذّمه ما نزل من القرآن يتلى إلى يوم الدين.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾ المدثر: ١٨- ٣٠

سيكون جيداً النظر إلى تلك العلاقة الترابطية بين العقل وسماع القرآن والهداية، إذ يؤدي السمع في هذه العملية دورا بارزاً جداً وإن حدث بصورة صحيحة يؤتي أكلا طيبا، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ التوبة: ٦، وهذا نص صريح أنّ في سماع القرآن الكريم سرّاً روحيا سيكون سببا في هداية الناس، كما حدث مع سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه والطفيل بن عمرو السدوسي وغيرهما.

إنه ليس معيباً أن يعمل العقل في مساحة التساؤلات المشروعة عن الواجد والوجود والموجودات الكونية، وهذا الذي حدث مع سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام- كما سبق -في رحلة البحث عن خالق الوجود، إذا فهي

مسألة كانت عند الأنبياء همّاً فكرياً، لكنها منضبطة بنزول "الوحي والشرع الذي مهمته الإجابة عن التساؤلات الوجودية وهداية الإنسان لمجموعة العلاقات التي تربط بينه وبين قضايا الغيب ويضبطها، وهذه العلاقات منها ما يبيّنها الوحي، ومنها ما يفسّرها العقل"[١]. تفسيراً لا يناقض الشرع والوحي.

لا تدعو هذه المداخلة إلى المثالية في تطبيق المهام الموكلة للعقل، لكنها تؤمن في ذات الوقت أنّ الذي منح العقل للإنسان أودع فيه ما يجعله في المقدمة، وهو بالضبط ما حدث مع المجتمع الإسلامي الأول بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم والجيلين بعده بقيادة الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين.

لقد شكّل العقل منذ القرن الخامس في طروحات الإمام الغزالي أبو حامد "منظومة متكاملة من العوامل التي تعمل معا باتجاه النضج الفكري والنفسي للإنسان ليكون عاقلاً، ويؤكد هذا المعنى ما ورد في القرآن الكريم من ذكر للعقل، فقد جاء على صيغة الفعل يعقلون، تعقلون، تعقل، عقلوه، يعقلها، وجميعها تشير إلى قدرة لدى المرء على ربط الأشياء بمعانيها وحبس النفس ومنعها عن الهوى والحمق"[٢]

ومن المهم أيضاً الإشارة أنّ "منظومة العقل هذه تحتاج إلى آليات تعمل معها لتحقق المفهوم الذي أراده القرآن، فالتفكير والتقليب والتأمل وإمعان النظر والإنضاج وتوفير المعرفة والبحث عنها جميعها تعمل مع العقل في توازن دقيق وحركة دائمة موضوعها هو الواقع" [٣]

---

[١] المعرفة الإنسانية بين اجتهادات العقل وهدايات الوحي، لالوسي عبد الحليم، مجلة المعيار، جامعة قسنطينة المجلد ١٩ العدد ٣٧ ، ٢٠١٤ ص ٨

[٢] مهمة القرآن في تنمية التفكير المنظومي، ص ٥٨٣

[٣] مهمة القرآن، ص ٥٨٤ .

خاتمة:

في ختام هذه المداخلة التي تناولت قدراً قليلاً جداً مما ذكر في القرآن الكريم تجاه الإنسان وبناءه وصناعته، يمكننا أن نستمر في الاعتقاد أن قراءة المنظومات القرآنية المختلفة بصورة صحيحة ودقيقة، ربما تُسهم في تصحيح التصورات البشرية تجاه الأدوار التي يمكن للإنسان تأديتها، وفي هذه الحال لن يكون مُستحيلاً الانتقال من صناعة الإنسان إلى صناعة المجتمعات كما حدث في المجتمع الإسلامي الأول،

وتبعاً لهذا الطرح يمكننا أيضاً تسجيل النتائج التالية:

١- أنّ المنظومة الإنسانية لا تنضبط إلا بالمنظومة العقلية، وأنّ هذه الأخيرة لا تنضبط هي الأخرى إلا بخطاب القرآن الكريم.

٢-يتيح لنا خطاب القرآن الكريم إمكانية اعتبار المنظومة العقلية التي جاءت في القرآن الكريم بصيغ مختلفة مرتبطة بمجالات متعددة، ـ يمكن اعتبارها ـ أصلاً لمتلف المنظومات في القرآن الكريم، الفكرية، والعقدية، والسلوكية والقيمية، والأخلاقية، والتربوية؛ لأن وجود العقل السليم ضامن لوجود باقي المنظومات.

٣-لا يمكن على الإطلاق المقارنة أو التسوية بين المنظومات المنتسبة لخطاب شرعي صحيح، وبين غيرها مما تنتسب إلى دين محرف، أو لا انتساب لها أصلاً.

٤- أن بناء الإنسان في القرآن الكريم هو بناء متكامل لا يهتم به في جانب دون آخر.

٥-أن المنظومات المختلفة التي يشملها القرآن الكريم لم تكن غائبة عن الأجيال الأولى والقرون الماضية، بل كانت حاضرة في أذهان الصحابة عليهم

الرضوان دون مسميات فهم معاصرو الوحي وهم من عايشوا النبي صلى الله عليه وسلم، فكانت حياتهم عملية تطبيقية أكثر من كونها نظرية.

٦-يجب أن ترقى أفهام الأجيال الحديثة والقادمة إلى مستوى خطاب القرآن الكريم، فالقرآن لا يمكن أن ينزل خطابه إلى مستوى أفهام الناس، لثبات أحكامه وتشريعاته.

التوصيات:

أما ما يمكن تسجيله ضمن هذه المداخلة من توصيات، فنعتقد أن الدعوة إلى إدراج المنظومات القرآنية المختلفة (العقلية، الإنسانية، الفكرية، الحضارية.....) ضمن المناهج التدريسية والتعليمة المختلفة كفيل بتقديم الصورة المتكاملة حول هذه المنظومات.

قائمة المصادر والمراجع

١. ١الإنسان في القرآن، برهان رزيق، دار حوران، سوريا، ط١، ٢٠١١
٢. الإنسان في القرآن، عباس محمود العقاد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر العربية، ٢٠١٢.
٣. بلاغ الرسالة القرآنية، من اجل إنصار لآيات الطريق، الأنصاري فريد المغربي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م
٤. تفسير القرآن العظيم، بن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر، تحقيق، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون، ط١، ١٤١٩هـ
٥. تفسير الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١
٦. حقوق الإنسان في الإسلام . التركي عبد الله بن عبد المحسن، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف والإرشاد الديني، السعودية، ١٤١٩هـ
٧. دراسات في تميز الأمة الإسلامية وموقف المستشرقين منه، إسحاق بن عبد الله السعدي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤٣٤هـ ٢٠١٣
٨. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الآلوسي، شهاب الدين محمود، تحقيق، علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ
٩. صحيح البخاري، البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، تحقيق، محمد زهير بن ناصر الناصر، كتاب باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢، الحديث رقم ١٣٠٩
١٠. فقه بناء السلوك في القرآن، كفاح أبو هنود، عصير الكتب للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٢٠.
١١. كلية العقل حفظها وتنميتها لدى علماء النفس ومؤسسات التعليم والصحة النفسية بدولة قطر، مريم زايد هزاع، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، ٢٠٢٠
١٢. كيف يصنع الإسلام الإنسان الصالح، فاطمة عبد المقصود، مقالة منشورة على موقع https://tipyan.com/how-does-islam-create-agood- perso
١٣. مهمة القرآن الكريم في تنمية التفكير المنظومي لدى الإنسان، مصطفى محمود حوامده، مجلة جامعة دمشق، المجلد ١٩، العدد٢، ٢٠٠٣

١٤. مصطلح العقل في القرآن الكريم ووسائل الحفاظ عليه: دراسة قرآنية مقاصدية، باي زكوب عبد العالي، ياسر طرشاني، مجلة التراث، المجلد ٥، العدد٢، ٢٠٢٠ https://spaj.ukm.my/jalturath

١٥. المفاهيم الحاكمة لبناء العقل البشري وكيفية استخدامها لإعادة بناءه، عبد المنعم محي الدين عبد المنعم، حنان جمال عبد الحليم، مجلة كلية التربية، جامعة طنطا، المجلد ٨٠ العدد٤، ٢٠٢٠

١٦. مقاصد الشريعة الإسلامية، ابن عاشور محمد الطاهر، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط١، ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤.

١٧. المعرفة الإنسانية بين اجتهادات العقل وهدايات الوحي، لالوسي عبد الحليم، مجلة المعيار، جامعة قسنطينة المجلد ١٩ العدد ٣٧ ، ٢٠١٤

١٨. الهندسة الاجتماعية، صناعة الإنسان والمواطن، علي عباس مراد، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، دار الروافد الثقافية ناشرون، بيروت، ط١، ٢٠١٧